الوقائع الاعتيادية في سيرة صابر العائد

قصة بقلم
الياس الماس محمد

تتقاطع المستقيمات الخشبية ما بين العمودين الافقيين للسور الخشبي الواطيء للجسر ، وبتقاطعها تشكل مثلثات متقابلة القمم . واحدة الى الاسفل والاخرى الى الاعلى ، لذا أسند رأسه على المثلثين الخشبيين المتقابلين .

وضع خوذته المتربة على صدره ورزمة صغيرة دسها في قميصه الكاكي ، تنفس بعمق كما لو انه لم يتنفس من قبل ، التفت الى الجهة الثانية من الجسر . لم ير سوى الظلال الساقطة ما بين فتحات المثلثات . ذلك لان الجسر محدودب في وسطه . نهض من مكانه ، مسح جبينه المبلل بكم قميصه الكاكي . سار خطوات . امتدت امامه أنوار البيوت المنتشرة في الجهة الثانية .. ابتسم .. وتسارعت خطواته .. تتوضح امامه تلك الاضواء المنتصبة اعلى الاعمدة . اقترب من عنق الجسر . من على بعد قريب بانت سيارة سوداء تسير هادئة تجاهه . توقفت عند فتحته .. نزل احدهم ورمى كيسا في النهر وعاد الى السيارة .. فاختفت في زقاق جانبي يرتبط بالجسر تاركة خلفها بقايا ضوء متحرك .. اقترب من مقدمة الجسر . دس رأسه من بين المثلث الخشبي المفتوح . لم ير سوى ذلك الكيس الملتمع اثر تساقط الضوء على سطح الكيس ..

في صبيحة اليوم التالي تجمع الناس قرب الجسر ، الاطفال يهرولون نحو النهر والنساء منلهفات لرؤية ذلك الحدث الغريب .. امتدت الرؤوس من بين فتحات المثلثات الخشبية .

الوجوه مهووسة على جانبي النهر الذي يقطع المدينة الى النصف ، ثمة كيس من « السلفان » الشفاف محكم الشد من الاعلى طاف على سطح النهر والوجوه جاحظة العيون مندهشة الملامح ، مفتوحة الافواه والاصابع تمتد على سطح النهر ، تتكور .. تستطيل .. تمتد .. تقصر .. ثم ما تلبث بعد لحظات ان تطول وتطول ..

(بالامس رموه من على الجسر) قال أحدهم ذلك ..

جاءت سيارة الشرطة .. احدهم مد عمودا من الخشب الرفيع ينتهي بملقط شوكي . سحب الكيس الممتلىء بكومة من اللحم المبلل بالدم الممزوج بالماء . حينذاك رفع الكيس من نهاية المقبض وسار به نحو السيارة والوجوه لما تزل جاحظة العيون ، مندهشة الملامح ، مفتوحة الافواه .. تستطيل الاصابع ثم تمتد داخل الماء .. دس الكيس في زاوية من مقعد خلفي للسيارة .. بعدها كتبوا في السجل ..

(صبيحة هذا اليوم عثرت دوريتنا على جثة (لقيط) في نهر المدينة .. و .. و ..)

مط الرجل شفتيه وقال .. بالامس رموه من على الجسر اذ جاءت امرأة متلفعة بعباءة سوداء مع الخيط الاول للشمس صباح أمس ورمته في النهر .. آخر أقسم أن الكيس جاء مع سيل الماء المنحدر من أعلى النهر فاستفز على الشاطيء القريب من الجسر .. صرح الثالث أن هناك من يؤيد شهادته بأن الكيس رمته سيارة وقفت بالقرب من الجسر .. اقترب كبير الشرطة من الكيس الموضوع داخل صندوق زجاجي ، كتلة لحمية وردية اللون وثمة بقع سائلة من الدم تغطي الجزء الاعلى من الكتلة وندب سوداء انتشرت على سطح نتوءات لحمية باردة على الجسر الصغير . انحنى برأسه نحو الصندوق الزجاجي ، رفع نظارته اللامعة ، امر بارسال الكيس الى مستودع طبي في المدينة ..

اقترب من البوابة الخشبية المحفورة الجوانب بكتابات غير واضحة من كوة في الجدار ، تمسه رأس الشيب الجوانب يطل ..

ـ ماذا تريد ؟

رفع خوذته الفضية ومسح جبينه بكم قميصه الكاكي .

ـ أيمكن أن أرى « سالم الباهي » ؟

ـ اي سالم هذا الذي تريده ؟ ..

ـ اليس هذا منزل سالم الباهي ؟

ـ لقد اخطأت ايها الجندي .. ثم انك لن تجد في المدينة اي شخص بهذا الاسم ذلك لان هذه المدينة تسمي اولادها ورجالها ونساءها بأسماء يبدأ حرفها الاول من الحرف الاول لكبير المدينة ورئيسها .

اقترب الجندي من الجدار وقال :

ـ عجيب امركم .. من هذه الكوة التي اطللت منها براسك كسرت جرة ماء للعم سالم الباهي عندما كنت صغيرا ..

ـ لا تكن عنيدا يا ولدي

ـ انظر الى هذه الرسالة التي أحملها ، انها من

ولده (سليمان) صديقي الجندي في سرية الانقاذ الاولى

ـ أنصحك وانت في بدايات عمرك .. مدينتنا لم تدر بالحرب منذ عشرات السنين.. دعونا ايها المشاغبون ننعم بهدوء النوم .. اذهب بعيدا والا ..

اقترب الجندي من زريبة خربة قرب المسجد .. تقدم من رجل كبير السن

ـ مرحبا ايها العم

رفع الرجل عينيه دون أن ينبس ببنت شفة .

ـ ماذا تريد ؟

ـ الا تتذكرني ؟

تطلع الى وجه الجندي . خفض رأسه الى أسفل حيث الحذاء الجلدي الاسود الذي خرج منه اصبع متسخ

ـ ومن انت حتى اتذكرك ؟ ..

ـ أنا ولدت بالقرب من هذه الزريبة . وامي التي كانت تبيع ارغفة الخبز هناك على قارعة الطريق .. وابي (عبد العظيم) الحارس الليلي لهذه المنطقة .. الا تتذكرهما ؟ ..

بصق الرجل على الارض ومد ساقيه .

ـ اذن أنا أتذكرك .. ألست العم عبد الباقي الذي كنت تدير منزلا للنوم خاصا بالمسافرين ؟..

مطّ الرجل شفتيه وقال :

ـ انا أدير منزلا لايواء المسافرين .. وتسميني بالعم عبد الباقي ؟ اعطني قفا ظهرك وابتعد ..

ابتعد عنه .. حمل من تراب الزريبة ملء كفيه واحتفظ بها داخل جيب بنطاله ..

ثقيلة كانت خطواته ما بين الخوذة المتأرجحة وبين الارصفة التي تمتد وتستطيل أسفل حذائه الجلدي . يلتفت الى الواجهات الزجاجية اللامعة . يقف أمامها بسرعة .. المدينة قبل الحرب لم تكن بهذا الوجه الملتمع خلل الواجهات الانيقة . يتطلع الى صورة وجهه المعكوسة على سطوح زقاق جانبي . يخرج منها الى حانة ثم ما يلبث أن يقف ويمسح جبينه بكم قميصه الكاكي .. يقترب من عمود النور ، يتطلع الى البيوت الواطئة الملاصقة للعمود .. يرفع رأسه الى نافذة خشبية .. يبتسم .. يرفع يده عاليا .. يكرر ذلك مرات .. تغلق النافذة .. يقترب من حانوت .

ـ يا عم .. الا تعرفني ؟ أنا صابر .

ـ من انت ؟!

ـ أنا صابر الذي ذهب جنديا للحرب .. ألا تتذكر كيف احتضنتني لاني اصبحت رجلا ؟ أتذكر انك تمنيت أن تكون شابا لترافق السرية المدافعة ؟.. لكنك كنت رجلا كبير السن .. نعم انا هو الا تتذكرني ؟..

هزّ الرجل كفيه وقال :

ـ أنا هنا ابيع التوابل واتاجر بها بالجملة ، ولا أتذكر اني غادرت هذه المدينة .. طيلة حياتي لم أعرف رجلا اسمه صابر .. ثم اذا اردت كمية كبيرة من التوابل للشراء فسوف أمنحك خصما خاصا من الارباح .

ـ أنا صابر الذي كنت أقف أسفل عمود النور هذا .. أتذكر انك كنت تعضّ شفتك السفلى حينما تلوح لي برأس بصل .. هه .. الا تتذكر ؟

ـ يا ولدي .. خذ هذه اللفة من الاكل .. لم نسمع من قبل أن الجوع يطيل الثرثرة ..

ـ ولكن يا عم .. أنا صابر .

ـ هيا اذهب عني .. والا ...

اتجه صوب العمود مرة ثانية . وقف اسفله . تطلع الى النافذة ، كانت مغلقة تماما .. حينذاك تحرك نحو الجسر ، كانت خطواته بطيئة ، والشمس تهبط مسترسلة خلف المدينة ..تطلع الى المثلثات الخشبية المفتوحة في عنق الجسر ، تطلع من الفتحة الى سطح النهر حيث كان الماء يتحرك حركات دائرية بانتظام ..

وفي عنق الجسر من الطرف الثاني للنهر قدمت سيارة سوداء . خرج احدهم فرمى كيسا في النهر .. حينذاك اقترب الجندي ، تطلع الى سطح النهر ، كان الماء يهتز ضمن دوائر تتسع شيئا فشيئا بانتظام .

الياس الماس محمد

البصرة

صدر حديثا :

الانسان وقواه الخفية

تأليف كولن ولسن

ترجمة سامي خشبة

دراسة في القوة الكامنة التي يملكها البشر للوصول الى ما وراء الحاضر

منشورات دار الآداب